

النواعير في كتب التراث العربي

محمد عدنان قيطاز

يرتبط اسم حماة بالنواعير منذ أقدم العصور، وتنفرد بها عن سائر مدن العالم، والنواعير كما هو معروف دواليب خشبية مائية ذات حركة دائمة تعمل بقوة دفع الماء الهادر عبر فتحة في سد صغير فترفع الماء من المنخفضات إلى المرتفعات بواسطة صناديق معدة على محيطها، فتسقي البساتين والحمامات والدور والمساجد والخانات، واسم الناعورة مشتق من نعيها وهو صوتها، ويطلق عليها أيضاً اسم الدولاب والساقية والشادية. وهي ذات أجسام مختلفة، ولكنها متشابهة في الصنع. فهناك نواعير صغيرة تقوم على أفواه الآبار، ونواعير كبيرة تستند على حجريات فوق مجاري الأنهار. وتعد حماة أقدم موطن للنواعير، وأكبر ناعورة ما تزال قائمة حتى اليوم في حماة هي "ناعورة المحمدية" إذ يبلغ قطرها واحداً وعشرين متراً، وعدد صناديقها مائة وعشرون صندوقاً.

ونحن لا نستطيع أن نحدد تاريخ ظهورها بدقة، لأن أهل العلم اختلفوا في ذلك، فمنهم من يرى أنها تعود إلى العهد الآرامي، ومنهم من يرى أنها ظهرت في العصر الهلنستي، وآخرون يرون أنها رومانية، وقد ذهبت المستشرقة الإنكليزية مسز بل بعيداً عندما أصدرت كتابها "الصحراء والمعمورة" عام 1907 في أعقاب زيارتها لمدينة حماة.. فذكرت أنها فارسية، وهذا القول لا سند له، ولعل أقدم مصدر لتاريخ النواعير هو صورة من الفسيفساء عثر عليها المنقبون بين أطلال أفاميا تمثل ناعورة ترقى إلى العصر الروماني، ويرى بعضهم أنها تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد. وقد ذكر الرحالة والجغرافيون العرب نواعير حماة في مؤلفاتهم أمثال ابن جبير وابن بطوطة وياقوت

الحموي وأبي الفداء، كما ذكرها الشعراء في قصائدهم عند نزولهم في حماة أو مرورهم بها باستثناء امرئ القيس.

ويشير سوبرنهايم صاحب المعلمة الإسلامية أن فيما اقتبسه الصليبيون من بلاد الشام صناعة النواعير، ويدل على ذلك بوجود نواعير في فرانكفورت بألمانية على مقربة من بايروت كالتى في حماة لا تزال دائرة. كما تشير بعض المصادر الأندلسية إلى وجود نواعير في مدينة مالقة، وتبدو صورة طبق الأصل عن نواعير حماة. وفي كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطيب بعض المقطعات لنفر من شعراء قرطبة والزهرة أمثال: عبد الملك بن سعيد المرادي 366هـ وأبي بكر بن هذيل 389هـ ومحمد بن الحسين الطاري 394هـ ويوسف بن هارون الرمادي 403هـ وآخرين غيرهم ذكرهم صاحب نفح الطيب، وفي كتابه زيادة لمستزيد.

أما كتب أهل المشرق فقد أوردت طائفة من الأشعار، ومعظمها قيل في نواعير الفرات، وما أكثر النواعير على شط الفرات كما يقول الزمخشري في أساس البلاغة. غير أن الأشعار التي قيلت في نواعير حماة هي التي حفظتها الرواة ودونها المدونون. وسوف نتحدث هنا عن كتاب الأنوار في محاسن الأشعار لأبي الحسن الشمشاطي وكتاب بدائع البدائع لابن ظافر الأزدي، وهما غريبان في بابهما لاشتمالهما على مجموعة من شعر القدماء في نواعير الفرات ومصر، كما نتحدث عن نواعير حماة في شعر ابن نباتة المصري.

أ. النواعير في كتاب الأنوار في محاسن الأشعار:

أبو الحسن علي بن محمد العدوي المعروف بالشمشاطي من أعلام القرن الرابع الهجري، مالك لأعنة البيان شعراً ونثراً، غير أن أخباره وآثاره نادرة في كتب الأدب والتراجم.. لذا لا نعرف منها إلا القليل [انظر على سبيل المثال معجم الأدباء 13: 240]. وربما كان كتاب الأنوار في محاسن الأشعار هو الكتاب الوحيد الذي وصلنا من تصانيفه الكثيرة التي قاربت الأربعين كتاباً، معظمها يتعلق بالأدب وأخبار أهله، ومنها ما يتعلق باللغة والنحو والتاريخ والأنساب، ومنها ما ذهب في بيان فضيلة التشيع والانتصار له، وهناك رسائل في موضوعات متفرقة. ويدل كتاب الأنوار على دراية تامة بأيام العرب، ورواية ضافية وافية لطائفة من شعرائهم. وقد تفرد برواية أخبار وأشعار لم ترد في أي كتاب سواه، وبخاصة مقطعات من شعر أبي العباس النامي والحسين بن الضحاك وديك الجن وأبي نواس. ومن المعروف أنه جمع ديوان ديك الجن، ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا. ويذكر محقق الكتاب الدكتور السيد محمد يوسف أن هذا الكتاب لم يخل من أبيات نادرة للقدماء أمثال النابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم والأخنس بن شهاب.

ولعل أجمل ما أطرنا به الشمشاطي نخبة مجموعة من أشعار العرب في النواعير وحنينها، فقدّم لنا اثني عشر نصاً فريداً في هذا الموضوع الذي لم يعرض له كاتب سواه قبله. وهذه النصوص هي أقدم ما وصل إلينا في النواعير، ثم أضاف إليها نصاً من شعره. وهي: نص لأعرابي مجهول،

وللمجنون نص، ولعبيد الله بن مسعود ثلاثة نصوص، ولأبي العباس النامي نص، ولصالح الديلمي نص، وللخباز البلدي نص، ولأبي طالب الحسين بن علي الإنطاكي نصان، ولابن الرومي نص، ولمصنف الكتاب أبي الحسن الشمشاطي نص. والنواعير المقصودة في تلك النصوص هي نواعير الفرات ودجلة، وليست نواعير العاصي، وهي أصغر حجماً وأقل حمولة من نواعير العاصي. ونعيرها وإن كان متشابهاً في تلحينه.. إلا أنه مختلف في تلوينه، ارتفاعاً وانخفاضاً. ونواعير العاصي أبعد مدى وأعظم صدى، على أن تأثيرها في النفس واحد، وكلاهما حزين مثير للوجد والشجن.

يربط أعرابي في النص الأول بين حنين النواعير وحنين الإبل، غير أن حنين الإبل له أسبابه وبواعثه، فهي تحن إلى معاطنها ومواطنها، في حين كان حنين النواعير مبهماً لا وجه له، سوى أنه يشجي الحزين، فينثر المدامع على الخدين إظهاراً لوجده الدفين.

يقول الشمشاطي في كتابه: أنشدت لبعض الأعراب:

ولما نزلنا الساحلين تجاوبت	أبا عرنا لما ازدهت النواعر
وحنّت نواعير الفرات بأرضها	فلما استحتت جاوبتها الأباعر
أباعرنا .. بعض الحنين .. فإنه	إلى غير شيء ما تحنّ النواعر
سوى أنها تشجي الحزين الذي به	إلى رؤية الأحباب داءً مُخامر
إذا نحن أخفينا الدفين الذي بنا	من الوجد نمته الدموع البوادر ⁽¹⁾

ومثله فعل المجنون في حديثه عن النواعير، فهو يحن من وجده إلى ربي نجد، وهي تحن من غير وجد، ولكن الفرق بينهما أن دموعها تسقي الرياض، ودموعه تقرح الخدود. يقول المجنون:

باتت تحنّ وما بها وجد	وأحنّ من وجد إلى نجد
فدموعها تسقي الرياض بها	ودموع عيني أقرحت خدي ⁽²⁾

وإنني لأظن أن نص الأعرابي ونص المجنون، كلاهما رائد في بابيه، غير أن الأول عليه مسحة البداوة، والثاني عليه نفحة الحضارة، وما تلاهما من نصوص كان عاماً لهما، وتقصيلاً لما كان مجملاً.

ويبدو لي من قراءة نصوص عبيد الله بن مسعود (98) هـ أنها متشابهة، فألفاظها واحدة، ومعانيها متقاربة. فمفردات [الحنين والشجو والصبابة والدموع] وردت في النصوص الثلاثة،

(1) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 3.

(2) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 3.

يقول عبيد الله بن مسعود في النص الأول:

حَنَنْتُ إِلَيْكَ مِنْ شَجْوٍ وَحَنْتُ
خَلُونَ مِنَ الْهَوَى وَمُلَنْتُ مِنْهُ
سَاقِينَ الْحُلُوفِ مِنْ ثَمَرٍ وَتَسْقِي

نزلنا بالفرات ضُحىً وحنّت
وظلّتُ أحنُّ من شوقٍ وليست
وبيتُ من الصبابة مستهماً
سواءً ما سقّينَ وما جرّته

ولما استَحَنَّتْ بالفِرَاتِ عَشِيَّةَ
تَحَنُّنٍ بِلا حُزْنٍ وَشَوْقٍ أَصَابَهَا
سَوَاءٌ بِكَاءِ الْعَيْنِ مِنْهُ وَالَّذِي
عَلَى أَنْفِي وَاللَّهُ قَدْ أَقْرَحَ الْبُكَاءَ

(1) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 4.

(2) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 4.

(3) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 5.

ويتناول ابن الرومي (283) هـ موضوع الناعورة تناولاً مختلفاً، فهو يلجأ إلى الوصف مستخدماً بعض معطيات العلم والفن، حيث نجد ألفاظاً ذات مظهر حضاري مثل [السمارية، البربط، القينة، اللحن، الزامر، الفلك الدائر] فيشبه الناعورة قارب السمارية (سفينة) بالبربط (العود) تارة، وبالقينة (المغنية) تارة أخرى، وكيزانها (جمع كوز) أنجم دائرة في فلك دائر. ويشق ابن الرومي من لفظة الناعورة صوتاً لها، فهي تتعر بالماء إذا أخرجت صوتاً. يقول:

كم صوّبت فيه سمارية موجفة كالنق نق النافر
ونعرت بالماء ناعورة حنينها كالبربط الناعر
وتارة تحسبها قينة تردّد اللحن على زامر
كأنما كيزانها أنجم دائرة في فلك دائر (1)

ولابن الرومي في الناعورة بيتان مفردان قائمان على التشبيه فحسب، وكأنما اصطنعهما اصطناعاً للتدليل على قدرته البيانية، وقد وردا في ديوانه. يقول:

وناعورة شبّهتها حين ألبست من الشمس ثوباً فوق أثوابها الخضر
بطاووس بستان يدور وينجلي وينفض عن أرياشه بلل القطر (2)

ويقترّب صالح الديلمي من ابن الرومي في تشبيه الناعورة بالفلك الدائر، وكيزانها بالنجوم، غير أن الديلمي أضاف ما أضاف توضيحاً لما ذهب إليه، فمنح الناعورة حياة، وجعلها تتحرك وهي بلا روح، وجعل كيزانها وهي تصب الماء كالنجوم المنقضة من السماء. يقول:

ومستدير بلا روح تدبّره يديره قُطِب في الأرض مركز
كأنه فلك تنقض أنجمه إذا تصوّب من كيزانها كوز (3)

أما أبو بكر الصنوبري أحمد بن محمد (334) هـ فقد جعل كواكب الفلك تنقض ساعة تطلع، كما جعل أصواتها ذات تلوين، فهي ترتفع وتنخفض، فيسمع منها حيناً حنين الذنب مردداً، ويسمع منها حيناً آخر زئير الليث مرجعاً. يقول الصنوبري:

فلك من الدولاب فيه كواكب من مائه ت تنقض ساعة تطلع
متلون الأصوات يخفض صوته بغنائه طوراً وطوراً يرفع

(1) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 9.

(2) انظر ديوان ابن الرومي 1150/3.

(3) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 7.

ينفي الصدى عن روضة نفحاتها
كملت محاسنها فنشر يرتضى
ويقول أيضاً:

كان دولا بها إذ حن مغترب
باك إذا علق زهر الروض والدّه
مشمر في مسير ليس يبعده
ما زال يطلب رفد البحر مجتهداً
نأى يحن إلى أوطانه طرباً
من الغمام غدا فيه أباً حديباً
عن المحل ولا يهدي له تعباً
للبر حتى ارتدى النوار والعشبا⁽¹⁾

ومثله فعل صاحب كتاب الأنوار أبو الحسن الشمشاطي حين يقول:

نزلنا بأكناف العراق فهيجت
نحن وتسقي الروض رياً ولم تذق
ولم تعرف الشوق الذي في جوانحي
ولو علمت ما قد لقيت ومُلكت
نواعيره أجزائنا حين حنت
هوأي الذي منه دموعي استهلّت
ولا حرقاً بين الضلوع استكنت
لساناً لباحت بالهوى وتشكت⁽²⁾

والبيت الأخير يذكرنا بما قاله عنتره في معاناة جواده إبان الحرب.. والكر والفر:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي

تلكم هي أقدم النصوص التي تحدثت عن نواعير دجلة والفرات في القرون الأربعة الأولى، أما الذين تحدثوا عن نواعير العاصي فلم يرد لهم ذكر في كتب الأدب والتراجم إلا بعد القرن الخامس الهجري.

2. النواعير في كتاب بدائع البدائ:

شهد العهد الأيوبي منذ قيام دولة الناصر صلاح الدين نشاطاً عقلياً واضحاً، شمل كل مناحي الفكر، من علم ودين، وأدب وفن، وتاريخ ولغة، ظهر في عدد من المؤلفات الحسان التي تركها لنا جهاذة العلم وأساتذة الفن أمثال: أسامة بن منقذ والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وابن سناء

(1) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 8 - 9.

(2) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 5.

1316هـ، والثالثة طبعة مصرية صدرت عام 1970 بتحقيق محمد أو الفضل إبراهيم، وهي أفضل الطبعات الثلاث وأتمها، وعليها اعتمادنا في هذا البحث.

ويعد كتاب بدائع البدائ من عيون الأدب، لأنه يشتمل على فوائد أدبية مختارة من كتب الأدب والنقد والتراجم، مما يوافق منهجه في التأليف، ومذهبه في التقسيم الذي التزم به. ولعل أجمل ما فيه من مطارحات وحكايات ما وقع في مجالسه، وما دار بينه وبين شعراء عصره في أثناء نزاهاتهم بين الرياض والغياض، وعلى أصوات النواير وخزير المياه عند ضفاف الأنهار، في غوطة دمشق وأرباض القاهرة، مما يذكر القرائح، ويقدر زناد البديهة والارتجال.

وقد مهد ابن ظافر الأزدي لكتابه بمقدمة أوضح فيها منهجه في التصنيف، وأبان عن تفرد فيه، مفتخراً بأن عمله لم يسبقه إليه أحد، ولم يرقمه في الطرس بنان. والكتاب مقسم إلى خمسة أبواب:

- 1 - في بدائع بدائه الأجوبة.
- 2 - في بدائع بدائه الإجازة.
- 3 - في بدائع بدائه التمليط.
- 4 - في بدائع بدائه الاجتماع على العمل في مقصود واحد.
- 5 - في بقية بدائع البدائه.

واستهل عمله بفصلين حول اشتقاق البديهة والارتجال، والفرق بينهما، ثم ختمه بمثل ما بدأ به. يقدم لنا ابن ظافر الأزدي في هذا الكتاب بعض الشواهد الشعرية حول النواير، وهي شواهد قبلت على سبيل البديهة والارتجال، للتدليل على مقدرة أصحابها في فن الصنعة الشعرية، ولاختبار قرائحهم في إصابة المعنى بسرعة، أي بديهة لا روية فيها، انسجاماً مع منهج المؤلف في كتابه. ولا تخلو هذه الشواهد من فوائد، وبراعة في الوصف، وبداعة في التشبيه وكلما أغرب الشاعر في وصفه كان أبلغ في بيانه، وأقرب إلى الدقة في إحسانه.

ومن فوائد هذه الشواهد أنها ترصد لنا بعض التسميات للنواير التي وردت على ألسن الشعراء، فمنهم من يطلق عليها اسم [النواير] مثل أبي محمد النامي في وصف ناعورتي بشيئا إحدى قرى بغداد. ومنهم من يطلق عليها اسم [الساقية] أو [الدولاب] مثل القاضي الأعز علي بن المؤيد الغساني في مساجلته مع ابن ظافر الأزدي صاحب الكتاب. وهذه التسميات ما تزال تتردد على ألسنة الشعراء حتى يومنا هذا، ولكن تسمية [النواير] هي أكثر شيوعاً واستعمالاً بسبب خصوصية هذه اللفظة، وعدم تعدد معناها. فالساقية مثلاً يمكن أن يكون لها أكثر من دلالة، وكذلك الدولاب، في حين لا تعني الناعورة أكثر من المعنى المقصود الدال على شيء بعينه.

ويلاحظ أن ما قدمه ابن ظافر الأزدي في كتابه يتوافق مع ما ذهب إليه من إيراد النصوص التي يغلب عليها الارتجال كما قلنا آنفاً، فما جاء مرتجلاً أو على البديهة، إجازة أو تمليطاً (ضرب من الإجازة أو المساجلة) كان أدعى لوقدة الذهن وحدة خاطر من القول الذي يأتي بعد روية

وإعمال فكر. والمرتل أو الباده كما يقول ابن ظافر الأزدي يقع منهما بالردىء اليسير، ولا يقع من المروي إلا الجيد الكثير [انظر ص7]. ولذلك كانت شواهد الشعرية الخاصة بالنواير مصطنعة، يبدو عليها أثر التكلف، وشتان بين الأثر المطبوع والأثر المصنوع على حين كانت مقدماتها النثرية ساطعة في بيانها بالرغم من زخارفها البديعية ومحسناتها اللفظية، لأن هذه الزخارف هي من سمات العصر. وهذا النقد لا يمس شواهد الكتاب الأخرى إلا في مواضع قليلة.

يقول ابن ظافر الأزدي في كتابه بدائع البدائ:

ومررت أنا وهو [يعني القاضي الأعز بن المؤيد] رحمه الله يوماً بدولاب ين أنين تكالى فقدت أطفالها، والنواعج أضلت أقالها، ويبكي بكاء صبا ألمه هواه، وصارمه من يهواه، وفرق البين بينه وبين محبوبته فراقاً لا يرجى انقطاعه، ولا يمكن استرداد ما سلبه منه ولا استرجاعه، فقلبه قد ملأته أوجاعه، وجفنه قد ضاق مجراه عن دمه ففتحت به أضلاعه، فقلت:

وساقية تن أنين تكلى
شكت بأيننها حر الأوار
فقال:

نحن ولا تزال تطوف عجلي
كرازمة نحن إلى حوار
فقلت:

غدت تحكي محباً ذا انتخاب
يطوف باكياً في رسم دار
فقال:

حكت فاكاً لجلب اللهو دارت
عليه من قوادسه دراري

وبصرنا بساقية تتلوى تلوي الأفعوان، وتخفق خفقات قلب الجبان، والزهر قد نظم بلبتها عقوداً فوق أثوابها الممسكة، والنسيم يكسوها ويلبسها غلائل مفركة، فقلت:

أساقية أم أرقم فر هاربا

فقال: أم الريح قد هزت من الماء قاضبا

فقلت:

حصى مثل در الثغر أجرى زلاله
رضباً وأبدى نبته النضر شارباً

فقال:

يوشحها زهرُ الرياضِ قلاتاً ويلبسها مرُ الرياحِ جلاباً⁽¹⁾

ويروي ابن ظافر الأزدي في موضع آخر من كتابه، عن الإمام الحافظ أبي طاهر السلفي، عن أبي غالب شجاع الذهلي، قال:

قال لنا أبو منصور بن أبي الضوء العلوي: كنت في قرية يقال لها بشيناء، وبها أبو محمد النامي، وهناك ناعورتان للزرع، فقال فيها وأنا حاضر:

أنا عورتِي شطِيّ بشيناءِ إنني نظيرُكما في الوجد والهيمان
أنينُكما يحكي أنيني وعبرتي كمالكما في شدة الجريان
فلازلتما في خفض عيش يمدّه أمانُ من التفريق والحدثان
وعملت أنا في الحال:

بشيني لها ناعورتان كلاهما تسحُ بدمعٍ دائم الهملان
مخافة دهرٍ أن يصيب بعينه لإحداهما يوماً فيفترقان⁽²⁾

وقد أورد هذا الخبر ياقوت في معجم البلدان مع اختلاف طفيف في الإسناد والرواية⁽³⁾.

وحكى ابن ظافر الأزدي في موضع ثالث من كتابه ما وقع له مع القاضي الأعز بن المؤيد في حديث طويل، حول دولاب بنر في بستان مجاور للنيل، فقال القاضي الأعز:

حبذا ساعة المجرة والدولاب يهدي إلى النفوس مسرة
أدهم لا يزال يعدو ولكن ذو عيون من القواديس تبدي
ليس يعدو مكانه قيد ذره كل عين من فائض الماء عبره
كل نجم منها يرينا نجوماً فلنك دائر يرينا نجوماً
وقال ابن ظافر:

ودولاب ينن أنين تكلّى ولا فقدأ شكاه ولا مضرة
تري الأزهار في ضحك إذا ما بكى بدموع عين منه ثرة

(1) بدائع البداه، ص 204.

(2) بدائع البداه، ص 252.

(3) معجم البلدان 291/1.

حكى فلکاً تدور به نجومٌ تؤثر في سرائرنا المسرّة

يظل النجمُ يغربُ بعد نجمٍ ويطلع بعدما تجري المجرة⁽¹⁾

ويمكن أن نلاحظ من خلال استقراءنا لهذه الشواهد الأربعة أن النواير المقصودة ليست على العاصي. وإنما هي نواير صغيرة، أقيمت على الآبار وضفاف الأنهار، في بغداد والقاهرة، أو على دجلة والنيل، وهي تشبه النواير التي تحدث عنها أبو الحسن الشمشاطي في كتابه الأنوار في محاسن الأشعار قبل قرن من الزمن، وكانت أوصاف الشعراء لها متقاربة، وكلهم مجمّع على أن الناعورة فلك دائر، وأن قواديسها نجوم. غير أن ابن ظافر الأزدي وصاحبه القاضي الأعز قد أضافا المجرة إلى ذلك إلفك الدائر، وكذلك الشعراء سوف يزدون في حديثهم عن النواير معنى جديداً كلما تصرمت العصور وتعاقت الأجيال، ولكل عصر وجيل إبداعه وإماتاه.

وربما كان أحمد شوقي أمير الشعراء في القرن الماضي أول من ذكر هذه النواير في شعره، ويسميتها "السواقي"، وهو وحده من أشار إلى أن هذه السواقي تدور بقوة الحيوان الذي كف بصره بيد الإنسان حتى لا يرى الدنيا تدور حوله من كثرة دوراته، والنير في عنقه. يقول شوقي في قصيدته "الربيع ووادي النيل":

وجرت سواقي كالنواير في القرى
الشاكيات وما عرفن صباية
من كل بادية الضلوع غليلة
تبكي إذا ونيت وتضحك إن هفت
هي في السلاسل والغلول.. وجارها
أعمى ينوء بنيره الفداح⁽²⁾

وقد وجدت لشوقي قصيدة أخرى يحن بها إلى مصر وهو في الآستانة، مطلعها:
بالله يا نسيمات النيل في السحر
وفيها يصف "ساقية" بجوار الهرم بقوله:
ذكرت مصر ومن أهوى ومجلسنا
اليوم أشيب والآفاق مذهب
هل عندكن عن الأحباب من خبر؟
على الجزيرة بين الجسر والنهر
والشمس مصفرة تجري لمنحدر

(1) بدائع البداهة، ص 246.

(2) انظر الشوقيات 25/2. الملوّاح: السريعة العطش، صفة لـ "بادية". والرّزاح: الإعياء والتعب. والغلول: جمع غل وهو القيد.

والنخل متشخّ بالغيم تحسبه
وما شجاتي إلا صوت ماقية
لم يترك الوجد منها غير أضلعها
بخيلة بماقياها فلو سئلت
هيف العرائس في بيض من الأزر
تستقبل الليل بين النّوح والعبير
وغير دمع كصوب الغيث منهمر
جفناً يعيرُ أخا الأشواق لم تُعر⁽¹⁾

3. نوايعر حماة في شعر ابن نباتة المصري:

عاش ابن نباتة المصري بين عامي 686 — 768 هـ إبان فترة حكم سلاطين المماليك البحرية، وقد وفد إلى حماة أيام حكم الملك المؤيد إسماعيل بن علي المشهور بأبي الفداء 712 — 732 هـ وحكم ابنه الملك الأفضل 732 — 742 هـ، وقال فيهما أجمل قصائده التي عرفت باسم ((المؤيدات)) و((الأفضليات))، كما قدر له أن يتمتع بطبيعة حماة الجميلة ونهرها العاصي ونوايعرها الشادية. ولعل أسعد أيام عمره المديد كانت في حماة، فقد حظي عند أبي الفداء ونجله الأفضل حظوة بالغة، ونال من الهيئات والصلوات ما لم ينله شاعر في عصره، وعاش في بلاطهما عيشة راضية لم يعرف فيها ذائقة العصر أو غائلة الهولان.

ومن يقرأ ديوان ابن نباتة الضخم أو يطلع على شيء من رسائله النثرية فسوف يلحظ أثر حماة واضحاً في شعره ونثره على حد سواء، وبخاصة في قصائده الطوال أو في مثانيه ومثاليه والسبعة السيارة التي برع في صياغتها براعة فائقة، وكانت النثرية هي السمة الغالبة على سائر أعماله الأدبية، وأظهر فيها من فنون الاقتدار والابتكار ما جعله سيداً في هذا اللون البديعي، وهو الذي مشى ملوك الأدب قاطبة بعد القاضي الفاضل تحت أعلامه طبقاً لما يقوله ابن حجة الحموي في خزانة الأدب. من ذلك قوله يصف حماة في الزمن الوسيم من أيامه الخضيلة الجميلة ونضرة النعيم في واديهما الرحيب الخصيب:

أحسن بوجه الزمن الوسيم
وحبذا وادي حماة الرحب
أرض السناء والهناء والمرخ
ذات النواعير سقاء الترب
تعلمت نوح الحمام الهتف
تعرف فيه نضرة النعيم
حيث زهى العيش به والعشب
والأمن واليمن ورايات الفرح
وأهـات عصفه والأب
أيام كانت ذات فرع أهيف

(1) انظر الشوقيات 153/2.

فكأها من الحنين قلبُ
لاسيما والماء فيها صبُ
لله ذاك السفح والوادي الغردُ
والماء معسول الرضاب مطردُ
يصبو لها الراي فكيف السامعُ
ويحمد العاصي فكيف الطائعُ؟

ومن المؤكد أن ابن نباتة المصري في حديثه عن نواعير حماة قد استفاد من دلالات من سبقه من الشعراء الذين وصفوا النواعير أو تغنوا بفلكها الدائر ودمعها الماطر.. وحنينها وأنينها، وأضاف إليها شيئاً جديداً بفضل إتقانه للصنعة البديعية التي مكنته من افتراع الألفاظ واختراع المعاني وتوليد ما هو ملائم للمظاهر الحسية والإثارية التي تقدّمها النواعير.

ولقد شبّه بعض الشعراء الذين سبقوا ابن نباتة الناعورة بالفلك الدائر كما رأينا من قبل، أمثال ابن الرومي وأبي بكر الصنوبري وغيرهما ممن كان مولعاً مستهماً بمناظر النواعير الخلابة.. وسحرها المعجب المطرب. وجاء ابن نباتة ليزيد هذا المعنى قدراً من التزييق والتلوين وبخاصة عندما يجعل كواكب المجرة مذنبات حسناوات تجرّ وراءها ذوائبها كأنها ذيول ذات أضواء سنية تذكرنا بالخيوط المائية التي تتساب وتتناثر من صناديق الناعورة وهي تدور فتزيد ما حولها ألحاً لا يخبو.. وجمالاً ليس يزول.. وتدع خيال المتلقّي حراً طليقاً في المدى الواسع والأفق الرحيب. يقول ابن نباتة:

ناعورة بمنازل البحر اقتضت
فك في حالة التشبيه بثّ عجائب
فلك يدور على المجرة مطلقاً
أسنى الكواكب وهي ذات ذوائب⁽¹⁾

وربما ذهب ابن نباتة في التشبيه مذهباً أغرب وأعجب.. عندما يجعل الناعورة ذات قدرة على حماية ما حولها من الغياض والرياح بسيفها وترسها، وهما وسيلة الدفاع للبطل. يقول ابن نباتة:

يا حبذا في الحسن ناعورة
كأنها من فلّك الشمس
تحمي حمى الروضات من مائها
وشكلها بالسيف والترس⁽²⁾

فالترس المدور يحكي الناعورة في شكلها الدائري، والسيف الضارب يحكي الماء المنسكب من قواديسها، وهذا التشبيه لم أقع على نظير له في غرابته، وقد عودنا ابن نباتة أن يقدم لنا دائماً في تشبيهاته البيانية كل ما هو غريب، ولكنه لا يخرج عما هو ممكن أو محسوس. ومن التشبيهات المألوفة تشخيص الناعورة، فهي ذات جسم وقلب، والجسم متعب منهوك لكثرة ما يتحرك ويحمل

(1) ديوان ابن نباتة، ص 61.

(2) ديوان ابن نباتة، ص 272.

من أقال. أما القلب فطيب.. لا يسأم ولا يبرم.. ولا ينفك عن البر والإحسان، وهذا القلب النابض بالحياة هو الذي يمنح الناس عيشاً كريماً.. كما يمنح الأرض الخضرة والنضرة. يقول ابن نباتة:

أعجب لها ناعورة.. قلبها للماء منشي العيش والعشب
تعبانة الجسم.. ولكنها كما ترى طيبة القلب (1)

وقد يصور لنا ناعورة في روضة وفقاً لأسلوبه في التشخيص، ويستخدم التورية برشاقة وناقة، فهو يورّي باسم "جعفر" واسم "ربيع"، ونحن نعرف أن الجعفر لغة هو النهر والربيع اصطلاحاً فصل من فصول السنة، والمحدثون يروون الحديث الشريف عن فلان وعن فلان، وابن نباتة في هذه اللعبة اللفظية يوظف التورية في أحسن حالاتها.. تاركاً قارئه أو سامعه يعجب من قدرته البديعية، وهو إمام الصنعة فناً وإبداعاً. يقول ابن نباتة:

أحسن بها ناعورة في روضة عن جعفر يروي الهناء ربيعها
هذا.. وليس يعد موج دموعها وتعد من فرط السقام ضلوعها (2)

ويأخذ ابن نباتة البيت الثاني ويزيده إيضاحاً وجلاء مستخدماً لغة الحوار، حيث نجد الناعورة حزينة سقيمة تبحث عن قلبها الضائع، في حين تبدو دموعها منسكبة على جسمها الناحل. يقول ابن نباتة:

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها وأضلعتها كادت تعد من السقم:
أدور على قلبي لأني أضعته وأما دموعي فهي تجري على جسمي

ويروق لابن نباتة في موضع آخر أن يوزع محاسن الناعورة على الأسماع والأنظار وهي تدور.. وتبكي:

وناعورة فسّمت حسنها على ناظر وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربى فاغتدت تدور وتبكي على الضائع (3)

ولا يخفى ما يحمل الفعل "ضاع" من معنى الضياع والضيوع في آن معاً، وهذا من مستلزمات التورية، أعني المعنى القريب وهو "الضياع" والمعنى البعيد وهو "الضيوع"، والضياع معروف، والضيوع هو انتشار رائحة الطيب، وهذا الاستخدام يتيح للقارئ قلباً معنى البيت على أكثر من وجه إن شاء، ويفتح أمامه باب الاحتمالات. ومثله في تعدد المعاني في البيت الواحد قول ابن نباتة:

(1) ديوان ابن نباتة، ص 61.

(2) ديوان ابن نباتة، ص 317.

(3) ديوان ابن نباتة، ص 317.

أحبب بها ناعورة كم حدثت بلسان ماء.. والحديث شجون

حنت فباطنها قلوب كلـ وبكت فظاهرها الجميع عيون⁽¹⁾

وكما كان ابن نباتة مولعاً بالتورية.. بارعاً في استخدامها، كذلك كان مولعاً بالإيداع وهو أن يودع بيتاً من شعر غيره أو نصف بيت أو ربع بيت بعد أن يوطئ له توطئة تناسبه بحيث يظن السامع أن البيت بأجمعه له، وكان ابن نباتة في هذا اللون من البديع نسيج وحده طبقاً لمقولة ابن حجة الحموي في خزائنه. فقد عمد في إحدى مثانيه عن الناعورة إلى إيداع نصف بيت من شعر المتنبي وهو قوله [أنا الغريق فما خوفي من البلل] وبيتا ابن نباتة هما:

يا رب ناعورة غنت لنا وبكت كحالة الصب بين اليأس والأمل

قالت.. ودمع أخى العشاق يتبعها: [أنا الغريق فما خوفي من البلل]⁽²⁾

وحالة الناعورة هنا في غنائها وبكائها كحالة الصب العاشق.. إنه يتقلب بين اليأس والأمل، فهو يبكي تارة عند الإحباط، ويغني أخرى عند الاغتباط.

ثمة ثلاثيتان متقاربتان في معناهما، يتحدث في الأولى عن مشاركته للناعورة في البكاء والحنين، فهي تحن إلى ماضي شبابها أيام كانت عوداً زاهراً في بستان، وهو يئن من سقام الغرام والبعد عن محبوبته.. فيشكو لها، ولا بدّ للمفطور من سامع ذي مروءة يئنّه شكواه لعله يجد عنده حسن المواساة أو طيب السلوى، أو يتوجع مثله على ما أصابه. يقول ابن نباتة:

وناعورة كانت قضييماً وأصبحت إلى القضب شوقاً كالحماة تسجع

شكوت لها ضر الغرام.. وحالها كحالي بكاء أو حنيناً يرجع

ولا بدّ من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

أما الثانية فمجل القول فيها أن الناعورة والشاعر، كلاهما يعاني الأسى منذ عهد بعيد، لقد تعلمت سجع الحمام على أيكها، وتعلمت من الشاعر فن البكاء على أحبابه. يقول:

ناعورة نشأة على عهد الأسى مثلي فما تنفك ذات توجع

كانت قضييماً قبل ذلك يانعاً في أكمة نبتت بإثرة موضع

ناح الحمام بها وأبكاني الأسى فتعلمت نوح الحمام وأدمعي⁽³⁾

(1) ديوان ابن نباتة، ص 538.

(2) ديوان ابن نباتة، ص 425.

(3) ديوان ابن نباتة، ص 315.

ذلكم هو ابن نباتة المصري في حديثه عن نوايع حماة، لقد جمع بين فن الصناعة وروعة البداعة، وكان في صنيعه محسناً.. وفي بديعه متقناً، وكفى حماة أن تميز جمالاً وجلالاً على لهاة الشاعر المصري الذي قال فيها وفي مليكها المؤيد أبي الفداء:

أما حماة فعيش ساكنها صفو.. وكل زمانها سحر
إسكندر الأيـام مالـكها بدليل أن زمانه الخضر⁽¹⁾

وبعد:

ذاكم هو حديث النوايع في تراثنا العربي الزاهر، وهو غيض من فيض، وقليل من كثير، ولكن هذا الفيض.. وهذا الكثير غير مجموع في كتاب، ولكنه منشور.. متفرق شذر مذر في كتب الأدب والمختارات والرحلات ودواوين أهل الشعر من مطبوع ومخطوط، وضمّ هذه المتفرقات غير يسير، ويحتاج إلى قدر من التقصي والبحث للعثور على مقولات الشعراء في النوايع قديماً وحديثاً. ولعل شعراء العهدين الأيوبي والمملوكي كانوا أكثر الشعراء إثارة وتقناً في تكوين صورهم الفنية، وتلويحها بالمحسنات البديعية.. وما أقدرهم على ذلك. غير أن شعراء حماة لهم صولات وجولات في هذا الميدان، وما من شاعر حموي إلا وله في النوايع شعر مسموع، وصفاً أو ذكراً، محاورة أو مناجاة، والحديث عنها طويل وهو بالتأكيد ذو فتون وشجون.

أما كتاب الغرب وشعراؤه الذين خلبتهم نوايع حماة فقد كتبوا عنها فرائد من بيانهم، وقد علمت مؤخراً أن أحد الفرنسيين قد جمع ما قاله شعراء العربية في النوايع.. وربما ظهر كتابه قريباً. ولا يخفي أحد السويسريين وهو فيليب بندل دهشته من مشهد النوايع وصوتها الغريب فيقول: تقوم هذه النوايع بالإيقاع المنسق لحياة السوريين، فهي تتكلم بلغة الأبدية البسيطة لتروي قصة حياة عظيمة لهذه البلاد المدهشة، ثم يقول: يقف السائح فجأة وهو مأخوذ بدوار التاريخ، فالعالم هناك في عريه الأزلي، ففي الجنوب هذه دمشق. وليس بعيداً عن تركيا تقوم حلب العظيمة.. وفي الشرق هناك الصحراء المترامية التي تتحول فتصبح واحة في تدمير.. وعلى أطراف خط الطول جنوبي البلاد هناك بصرى..، لكن الدفق والنغم الداخلي الحقيقي من سورية الخالدة فهو من حماة التي تضرب على وتر ألحان هذا الدفق الفياض، فهي تترنم بمزامير خفايا ثقافتنا، وهي تردد من غير أن تتوقف أبداً تاريخ الإنسان.. النوايع كما يقول "بندل" علامة الاستمرارية، والجو بجوارها يوحي بالسلام الدائم.

إن الدهر يدور، وإن النوايع لتدور، وكلاهما خالد إلى الأبد، وفي كل دورة يبرز نجم، ويغرب آخر، والنور الضئيل المنبعث من قنديل في محراب الأزل سيظل رمز عطاء لا ينفد، يصل الأول بالآخر، والحاضر بالغاير.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(1) ديوان ابن نباتة، ص 247.

أهم المصادر والمراجع:

- 1 - أساس البلاغة: محمود الزمخشري (538هـ) -
تحقيق عبد الرحيم محمود - طبعة مصورة
(1982م).
- 2 - الأنوار ومحاسن الأشعار: علي بن محمد
العدوي الشمشاطي - طبعة الكويت 1977م.
- 3 - بدائع البدائنه: علي بن ظافر الأزدي (613هـ) -
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة
مصورة - بيروت (1992).
- 4 - ديوان ابن الرومي (ج3) - تحقيق حسين نصار
- مطبعة دار الكتب (1976م).
- 5 - ديوان ابن نباتة المصري: الطبعة الأولى -
مصر 1905م.
- 6 - الشوقيات (ج2): أحمد شوقي - الطبعة
المصرية القديمة.
- 7 - معجم الأدباء (ج13): ياقوت الحموي (626هـ)
- دار المستشرق، بيروت، بلا تاريخ.

